

الخلاص من المأزق

- ١ -

الدكتور عبده زايد بلدياتي فكلانا جنوبي ينتمي إلى أقصى الصعيد، في منطقة شديدة السخونة تلقي بشحنتها وكأنها السنة الجحيم. وقد انعكست جغرافية المكان على الناس من أهل بلدي، فهم يتميزون غيظاً إذا ما أثيروا، ولا يهدءون إلا إذا ألقوا بحمولتهم، واسترخصوا من أجل ذلك الغالي من حياتهم.

ولكن هذا هو الوجه الظاهر، انتظر قليلاً واصبر، تجد الأمور تتغير، ويأتي بعد العسر يسر، وتتبذل الطبيعة، ويصل الأصيل بنسائمه العذبة، ويتحول الصعيدي إلى طاقة حب، يحتضن كل ما حوله، ويغني «موايله الخضر»، لأنها رمز للزرع والعطاء اصبر قليلاً على الصعيدي ولا تخدع بظاهره ولا تخش لسانه، فيما قليل ينفرج فمه عن قهقهة عالية، ويحتضنك بقوة، ويشبعك لثماً وتقبيلاً إنه كثمرة الدوم التي تنتشر في بلاده، ظاهرها خشن وعر، وباطنها حلو عذب.

وكل هذا يجعلني أطمئن كثيراً على نتائج خصومتي مع الدكتور زايد، فهي سوف تنجلي كما تنجلي قيلولته النهار، وينجلي الغيم لتتهطل الأمطار، لقد أثاره مقال لي عن الأدب الإسلامي، فاندفع يثار لنفسه، ويذود عن الحمى حتى لا يقترب منه أحد، وكان منه هذا الرد الذي نشره في العدد الخامس عشر من «مجلة الأدب الإسلامي».

وقد أثارني هذا الرد منه أيضاً، فاندفعت أثار لنفسي، وأرد على الرد، وأزود عن أرضي وعرضي، وعن وسطيتي العربية.

- ٢ -

ويبدو أن هذه الصفة، التي يتعايش فيها الأمران معاً، القيلولة مع الأصيل والعنف مع الغناء - ليست حكراً على الجنوبيين من أبناء الصعيد. بل هي سمة نفسية حفرتها عوامل الجغرافيا في المنطقة العربية في إقليم الشرق الأوسط. ففي الجزء الأول من كتابي «الوسطية العربية» وتحت عنوان «الطبيعة» لاحظت مثل هذه الملاحظة على عرب الجاهلية، فهم يحنقون حتى يتميزوا غيظاً، وهم يشقون حتى ينشدوا أشعار الحب والكرم.

إن عنتره العبسي، الفارس الهمام، يغضب في معلقته على ابني ضمضم، ويخشى أن يغادر الحياة قبل أن ينتقم منهما، ولكنه في المعلقة نفسها يدق ويرق أمام عبلة، حتى يرى وجهها في

لمعان السيوف وهو يقاتل العدو.

والعربي سواء كان من أبناء الجنوب في أقصى الصعيد، أو كان من أبناء الجزيرة العربية فوق جبل نجد - يتطرف إذا رضي، ويتطرف أيضاً إذا سخط، وقد أطلق القرآن الكريم على هذه



بقلم د. عبد الحميد إبراهيم

الحالة في سورة الفتح «حمية الجاهلية»

- ٣ -

كان لا بد من هذه الفصفاة، لأثبت أن الوسطية من نتاج المنطقة، فهي لا تتصادم مع العوامل الجغرافية، بل تبقي عليها وتضبطها وتهذبها، إنها تنطلق من الحالتين، وتقترب بتركيب الإنسان الذي يتأرجح بين العنف والرقعة، والجبن والتهور، ثم تضبطهما وتعديلهما وتضيف اليهما عنصر العدل، وهو العنصر الذي فسر به الطبري صفة الوسطية في سورة البقرة، لأنه يضبط الأمرين ويوازن بينهما، فلا يسقط أحدهما ويتأرجح الآخر، وضرب مثلاً على ذلك بالعدالية على حد تعبيره، أي الحملين اللذين يعادل أحدهما الآخر على ظهر البعير، يتوازنان فلا يسقطان.

ردود ومناقشات

وإذا كانت حالة التطرف تؤدي إلى حماية الجاهلية، فإن مقام الوسطية يؤدي إلى حالة السكينة، وهي الصفة التي جاءت أيضاً في سورة الفتح لتهدب من اندفاع الحمية ومن هنا ذكر أحد المفسرين أن السكينة تنزل على القلوب وقت الاضطراب لتهدئها، فقد نزلت على الرسول وصاحبه وهما في غار حراء، كما جاء في سورة التوبة، ونزلت على قلوب الصحابة لتثبتهم في صلح الحديبية كما جاء في سورة الفتح إن الوسطية هي ضبط الزمان للمكان، والتاريخ للطبيعة، والحضارة للبداوة، أو بعبارة أخرى: هي في إضافة الإسلام لضبط العرب، والانتقال بهم من طور الحمية والبداوة والطبيعة إلى طور السكينة والحضارة والتاريخ

وفي ظل هذا المعنى للوسطية، يمكن أن نفهم حالة السكينة بصورة أدق، فهي أي السكينة تجمع كذلك بين الأمرين ثم تضبطهما، فهي ليست جموداً يخلو من الحركة، وليست حركة منفصلة تصل إلى حمية الجاهلية، إنها مقام يجمع بين الحالين، ويبقي عليهما فيمنحهما الحركة المتزنة.

عزيزي زايد

ادع الله معي، بأن يجنبنا نحن أبناء الجنوب حمية الجاهلية، وأن يظلنا بمقام السكينة.

- ٤ -

لم تكن هذه الفضفضة من باب الاستطراد والمسامرة، ولكن أردت بها، كهدف أول، يؤكد أن الوسطية العربية ليست هي وسطية عبدالحميد إبراهيم يستطيع الدكتور زايد أن يهاجمه من أجلها، وأن يصفها بالمأزق الذي يجب أن يطرحه إنها وسطية تعبر عن المنطقة، وتعكس تضاريسها الجغرافية،

ومردوداتها التاريخية، ومسيرتها الدينية. إن الهجوم عليها هو هجوم على التراث وعلى حضارة المنطقة، وهو ذنب يجب على الدكتور زايد أن يستغفر الله منه، وأن يكظم غيظه، الذي جعله يضع الوسطية كتعبير عن حضارة باقية، في سلة واحدة مع عبدالحميد إبراهيم كحالة شخصية قائمة.

إن الوسطية موجودة، وهي مبررة تاريخياً ومكانياً، تحدثت في الجزء الأول «المذهب» عن ملامحها وتاريخها ورجالها وصراعاتها مع مختلف التيارات. وتحدثت في الجزء الثاني «التطبيق» عن انعكاساتها في مجالات عديدة: الأخلاق، الجمال، الفن، الأدب، اللغة، المنهج.

كان المفترض أن يناقش الدكتور زايد هذا المشروع مناقشة هادئة، تبتعد عن الفعل ورد الفعل، فقد تقنعه هذه المناقشة باعتناق الوسطية، التي اعتنقها القدماء والمحدثون، ولم ينكرها أحد حتى الغرباء الضالون، وقد يقتنع كذلك بأن الأدب الإسلامي ما هو إلا رافد من روافد هذا المشروع الحضاري الكبير. الذي يشمل الأدب وغير الأدب. أو أن الأدب الإسلامي هو تيار يوظف الأدب لخدمة العقيدة، كما يوظف علم الكلام المنطق لخدمة العقيدة، وهو تيار لا ترفضه الوسطية، ولكن تضعه موضعه الصحيح، داخل مشروع حضاري كبير، يفتح على الآخر، ولا ينكمش على نفسه.

لو أن الدكتور زايد انطلق من هذه الزاوية الحضارية، لاعتنق الوسطية، مذهب أهل السنة والجماعة، ودعا أصحابه إلى اعتناقها، فهي تقدم لهم

الأساس الحضاري، الذي يخرج الأدب الإسلامي من عنق الزجاجة، ليقترب من الآخرين على اختلاف مللهم ونحلهم ولكن الفعل ورد الفعل يجعلان الدكتور زايد ينسى كل ما جاء من تطبيقات في الجزء الثاني، ليركز على تطبيق واحد، وهو الفن الروائي الذي أوقفت عليه الجزء الرابع، فالفرصة هنا مواتية له لكي ينبهني بأنني قد تجاهلت بقية الأجناس الأدبية، لأركز على الفن الروائي وحده، وهنا يفيض في الإشارة إلى مؤلفاتي السابقة في مجال الفن القصصي، ليصل إلى نتيجة مؤداها، أن تخصصي الجامعي هو الذي أملى علي الاهتمام بالفن الروائي، وليعرج على ما يسميه بمشكلة القراءة الناقصة.

لو أنه تخلص من نزعة الفعل ورد الفعل، لوجد أنني قد أشرت في الجزء الثاني إلى تطبيقات عديدة في مجالات مختلفة. ولو أنه رجع إلى مقدمة الجزء الرابع لفهم السبب في الاختصار على الفن الروائي، والوسطية المعاصرة لم تبلور نفسها حتى الآن في تطبيقات عديدة، تحقق خلالها شخصيتها المميزة، ومن هنا اقتصرت على الفن الروائي، كمثال أستمد من خبرتي الجامعية، ولا ضير في ذلك، وهو مثال يحاول أن يحقق وجوده، خلال تجارب عديدة، لم يصل فيها حتى الآن إلى الغرض المنشود. ومن هنا سميت هذا الجزء الرابع «نحو رواية عربية»

لو أن الدكتور زايد تخلص من كبريائه، لما خرج عن مذهب أهل الجماعة والوسط، ولوجد في مشروع الوسطية ما يمنح الأدب الإسلامي مشروعيته، وحينئذ سوف يجتهد هو وصحبه في

تقديم تعريف جديد للأدب الإسلامي، لا يركز على الرجل ويتجاهل النص. لست هنا أقلل من أهمية العقيدة، وإلا خرجت من إطار حضارتي، ولكنني أرى أن موضعها هو كتب الفقه والأصول والتوحيد. أما الأدب فإن مجاله النص والشكل بالدرجة الأولى. لو أنه سلك هذا الطريق، وقدم تعريفاً حضارياً للأدب الإسلامي، يركز على النص دون الرجل، لأصبح هذا الأدب تياراً علمياً، لا يختلف عن العمارة الإسلامية، أو الفن الإسلامي، أو الخط العربي، أو غير ذلك مما تسعى الوسطية إلى تدعيمه وتبنيه.

- ٥ -

ولم يكن هذا الهدف هو المبرر الوحيد، وراء تلك الفضفضة وهذا الاستطراد، فإن هناك هدفاً آخر لا يقل في أهميته عن الهدف الأول، فقد أردت من شرح الوسطية، ومن الإحالة إلى آيات من سورة البقرة، أو من سورة التوبة، أو من سورة الفتح، أن أؤكد أن الوسطية تستمد أصولها من القرآن الكريم. وهذا أمر بدهي، فإن الوسطية تسعى إلى اكتشاف جوهر الحضارة العربية الإسلامية. وهو جوهر يقوم في دعائمه الأولى على أسس القرآن الكريم كمصدر يقدم التنظير. وعلى تعاليم الإسلام كتطبيق لهذا التنظير.

جاءت آية الوسطية في أول سورة نزلت بالمدينة، وهي سورة البقرة واقتترنت في الوقت نفسه بتوجيه المسلمين جميعاً وأينما كانوا نحو قبلة واحدة، وهي البيت الحرام. ومنذ هذه الآية والمسلمون يطبقون الوسطية في المعاملات والعبادات.

وهذا واضح في كتاب «الوسطية العربية» بأجزائه المختلفة، فالجزء الأول

عن «المذهب»، ومن هنا احتوى فصلاً كاملاً عن القرآن الكريم، كشفت فيه عن بنية الوسطية المتغلغلة في سوره وآياته، ومنهج القرآن الكريم في بعث الوسطية حية في قلوب المسلمين، والتدرج في هذا المنهج مع تدرج الوعي عند المسلمين. فهو في الآيات المكية يوجه النظر نحو مظاهر الطبيعة المتقابلة «ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين» أما في الآيات المدنية فهو يركز على الضبط والموازنة بين الزوجين المتقابلين.

أما الجزء الثاني فهو عن «التطبيق» وقد احتوى على فصل كامل تحت عنوان «الإسلام» تابعت فيه اهتمام الإسلام بتطبيق مذهب الوسطية خلال مواقفه المختلفة، واستشهدت على ذلك بآيات من القرآن الكريم.

ولم يقتصر الأمر عند هذين الفصلين. بل اعتمدت على القرآن الكريم في كل فصل، في فصل التاريخ، وفصل الحكمة، وفصل الجمال، وفصل الفن، وفصل الأدب، وفصل اللغة، وفصل الأخلاق، وفصل المنهج، بل إن الرواية التي أوردتها في الجزء الخامس تحت عنوان «حلم ليلة القدر»، اعتمدت في أسسها على القرآن الكريم، وأوردت سوراً كاملة، مثل سورة الضحى، كنوع من الأدب الوثائقي الذي اهتمت به الرواية المعاصرة. إن التوثيق خلال نصوص القرآن هو شيء جديد على الرواية العربية، التي سارت في معظم الأحيان على درب الرواية الأوروبية.

كان الأحرى بالدكتور زايد. أن يفتش في كتابي عن كل هذه الاقتباسات والاستشهادات، حتى يكتشف مواطن تلاق بين الوسطية العربية والأدب الإسلامي. ولكنه (فيما يخيل لي) غير معني بمواطن التلاقي، فهو يترك كل هذا. ويلقي تهمة بأن الوسطية العربية لا

تستند إلى القرآن الكريم وهي تبحث عن الشكل الأصيل للفن الروائي، ويوجهني بطريقة المعلم إلى الاهتمام بصورة الحب في القصص القرآني، ويروح ينقل من محاضراته التي يلقيها على طلابه، ما في سورة يوسف من تصوير للحب رائع، في لغة سامية، وتعاليم سماوية، وغير ذلك مما يحفظه كل طالب وكل مهتم بالدراسات العربية والإسلامية.

وأنا بدوري أشكره على كل هذه المعلومات المدرسية، وأحتفظ بها لنفسي لكي أرجع إليها حيثما أؤلف كتاباً عن القصص القرآني أما كتاب «نحو رواية عربية، الذي يعلق عليه الدكتور زايد، والذي يمثل الجزء الرابع من مشروع «الوسطية العربية» فقد قصرته، كما ذكرت في المقدمة، على الرواية العربية المعاصرة، وهي تسعى إلى كشف طريق أصيل يعتمد على التراث، سواء في صورته التاريخية أو الشعبية، وهو تراث يلتقي بالضرورة مع القرآن الكريم الذي شكّل وجدان المنطقة وأعاد صياغتها تاريخياً وثقافياً.

فأنا في هذا الكتاب أصف ولا أخترع، وأسجل ولا أفترض، وإلا كنت جاهلياً، تدفعني حميتي العنصرية إلى إشهار السيف، وتخويف المخالف.

ولم تكن سعادتي بمقالة الدكتور زايد، بسبب أنها أكدت لي أهمية الوسطية فحسب، ولكن بسبب آخر، وهو أنها أكدت لي كل ما ذكرت عن مآزق الأدب الإسلامي، ومنهج دعاة الأدب الإسلامي. وقد كفاني الدكتور زايد بتلخيص ما قلته، إذ راح في اجتهاد شديد يشكر عليه، يتابع انتقاداتي، ويصنفها في جدول مدرسي، وتحت أرقام سلسلة يسهل حفظها وترديدها.

إن رقم ٣ من جدولته الوافي والمفيد، والذي يصل إلى خمسة أرقام سلسلة،

ردود ومناقشات

يعيد ما ذكرته من «أن دعاة الأدب الإسلامي يصدرّون في التعبير عن أنفسهم من منطلق رد الفعل»، وجاءت ردود الدكتور زايد تؤكد لي هذه السمة المتأصلة، فإذا ما قلت الشكل الأصيل، قال وأين الشكل الأوروبي. وإذا ما قلت الحضارة العربية الإسلامية، قال وأين الكتاب والسنة. وهكذا كلما أقول يقول، وبين قلت وقال، وبين الفعل ورد الفعل، نفع في حمية الجاهلية أو نقلت منا معالم الوسطية.

يقولون إن حبل للشئ يعمي ويصم، وأقول لهم وسخطك على الشئ أيضاً يعمي ويصم، وهذا ما حدث من الدكتور زايد، فقد اندفع في حمية جنوبية ينقد كل ما قلته، واستهلك معظم طاقته في خاتمة الهدم والرد، ولم يتبق منه إلا القليل، الذي يوظفه للبناء وتقديم البديل. قد يقال إن الرد على الخصم أمر مشروع، وهو ما يؤكده الدكتور زايد الذي يقول «فماذا نفعل مع هؤلاء، إن الرد عليهم واجب، وتفنيدهم حجبهم ضرورة، والاستشهاد بالماضي لإثبات ما ينكرونه يصبح أمراً لا مناص منه، وليس في هذا دليل على ضعف القضية، وإلا كان الدفاع عن الإسلام دليلاً على ضعفه، وكان الدفاع عن وجود الله أمام الملاحدة دليلاً على ضعف القضية».

وما يقوله الدكتور زايد حق، ولكن الذي هو أحق، ألا يقف عند موقف الدفاع وردود الأفعال، وأن يتجاوز ذلك إلى خطوة أخرى يقدم فيها الدليل والبديل.

فإذا ما قلت إن الأدب الإسلامي مشغول بالماضي، فأين البديل الذي قدمه الدكتور زايد ليدحض هذه الفكرة. وإذا ما قلت إن الأدب الإسلامي يميل إلى المباشرة فأين البديل الذي ينقي هذا الزعم، وهكذا في كل ما قلته يندفع

الدكتور زايد إلى الرد، ولا يعني نفسه بالوجه الآخر، الذي يعود فيه إلى نص يقف دليلاً واضحاً ينفي كل هذه الآراء.

- ٧ -

ويبدو أن المنهج الجامعي الصحيح مغيب تماماً عن الدكتور زايد. فهو لا يدرك أهمية الاستشهاد، وهو يسخر مني حينما أستخدم تعبير «فيما يخيّل لي» ويرى أن هذا ضرب من التوهم، لا يصدر إلا من شخص لا يعرف ما يقول. إن المنهج الجامعي الصحيح هو الذي يستخدم تعبيرات مثل: وأظن، وفيما أرى، ويخيّل لي، وغير ذلك من تعبيرات تدل على أن صاحبها متواضع، يدرك المنهج الصحيح، ويعرف أن الحقيقة في عالم البشر صعبة المنال، وأنه لا يمكن البت فيها في أمور الدراسات الإنسانية، وعلى الإنسان أن يجتهد، وأن يسمح لغيره بأن يجتهد أيضاً، وألا يصادر أحدهما شخصية الآخر، خلال تعبيرات قاطعة، يسلمها على الخصم وكأنها سيف عنقبة الذي يقطع الرقاب.

إن الدكتور زايد يستنكف أن يستخدم تعبيراً متواضعاً، مثل «فيما يخيّل لي» ويفضل عليه تعبيرات تدل على القطع واليقين، لأنه هو وصحبه يصدرّون عن سلطة لاهوتية عليا، لا تسمح للصوت الآخر بالتواجد، وهذا هو ما ينص عليه صراحة حيث يقول تحت عنوان «فروق جوهرية»:

«أما الفرق بين مرجعية الوسطية ومرجعية الأدب الإسلامي، فإنه يترتب عليه فروق جوهرية. قلنا فيما سبق إن مرجعية الوسطية العربية هي الحضارة الإسلامية أولاً. وأن مرجعية الأدب

الإسلامي هي الكتاب والسنة أولاً. المرجعية الأولى مرجعية بشرية تستند إلى أصل إلهي، والمرجعية الثانية مرجعية إلهية تقوم عليها حضارة. والفرق شاسع بين المرجعيتين. ففي المرجعية الحضارية لجأ د. عبد الحميد إلى الانتقال من التراث، لأن التراث الحضاري يجمع بين الشئ ونقيضه، «أما الوسطية فهي ذلك الجزء المنتقى من التراث الذي يمثل خصوصية الحضارة العربية الإسلامية»، وعملية الانتقال تخضع لوجهة النظر الخاصة. فيما ينتمي إلى هذه الحضارة وما لا ينتمي إليها، فهي عرضة للأخذ والرد والصواب والخطأ، والمرجعية الثانية تتكئ على الأصل، وترد الإنجاز الحضاري البشري إليه».

حينئذ يتوقف الحوار، وتخرس الألسنة، فالمجال هو مجال الألوهية، علينا نحن أن نذعن ونطيع، وعليهم هم أن يقولوا ويفرضوا.

وهنا، فليسمح لي الدكتور زايد أن أضيف إلى جدولته الشهير رقماً سادساً، هو: «٦- ومن عيوبهم أيضاً، إضفاء القدسية على نصوصهم الأدبية».

إن هذا الرقم التسلسلي يلخص الفرق الدقيق بين الوسطية ودعاة الأدب الإسلامي كما يفهمه أصحابه. فالوسطية تدور في عالم البشر، وتتقبل الجدل، ولا تسير وراء سلطة لاهوتية، أما دعاة الأدب الإسلامي فهم يخلطون بين النصوص الأدبية والنصوص الدينية، ويصدرّون عن سلطة عليا، ولا يفسحون الصدر للرأي وما يقابله، ولا للفكرة وما يعارضها.

وقد ازدادت اقتناعاً بعد ردود الدكتور